

« وبعد »

فمن أى تنبع الأخلاق ؟

تنبع الأخلاق من منبعين اثنين لاثالث لهما : الوراثة ، والبيئة .

الوراثة

ماهى؟ أسبابها . طوائفها . قوانينها . وظائفها . ماتنقله . واجبنا نحوها

الاحاسيس الطبيعية فى الإنسان اثنان :

الأول - إحساس حفظ الذات .

الثانى - إحساس حفظ النوع .

هذان هما الإحساسان اللذان عليهما عمار الكون . فإذا كنت ترى الإنسان يحد ، ويكد ، ويشقى هنا وهناك فذلك لأن يحفظ ذاته .

وإذا كنت تراه يتصدى لتكوين أسرة فيجمع إلى نفسه نفساً أخرى ، يتحمل أعباءها كما يتحمل أعباء نفسه ، ويسهر على مصالحها كما يسهر على مصالح نفسه ، فيضيف إلى متاعبه تعباً ، وإلى شقائه شقاء فذلك لأن يحفظ نوعه . وللناس فى هذا الإحساس الثانى قيود تختلف باختلاف العصور والمجتمعات ، وهدف هذه القيود أن يُحافظ على ألا يختلط دم بدم .

ولقد لازمت هذه الظاهرة الإنسان فى تاريخه حتى الساعة ، وإن اختلفت قوة وضعفاً : قوة حين يفرضها الدين ، وضعفاً نسيباً حين يفرضها العرف .

فمثلاً نرى الإسلام يُحرم أن يتزوج المسلمة من غير المسلم ولو كان صاحب كتاب سماوى ، ويُحرم أن يتزوج المسلم من وثنية أو مجوسية ، وما إليهن ممن لسن من أهل الكتاب . وفى ذلك يقول كتابنا العزيز : « وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا ، وَلَا أُمَمَةً مُؤْمِنَةً خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ، وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا ، وَالْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ » .
واليهودية تحرم تحريماً قاطعاً الزواج بين اليهود وأهل الديانات الأخرى حتى النصارى والمسلمين أنفسهم .

والمسيحية بمختلف نحلها تحرم كذلك الزواج بين المسيحيين وأهل الأديان الأخرى حتى اليهود والمسلمين .

وبما يلاحظ هنا أن الإسلام أكثر تسامحاً من الأديان الأخرى فبينما نراه يُجيز للرجل المسلم أن يتزوج من مسيحية ، أو يهودية نرى اليهودية والمسيحية لا تُبيح مطلقاً أن يتزوج رجلها من امرأة على غير دينه . فلا يجوز لليهودى أن يتزوج من مسيحية ، أو مسلمة ، وكذلك المسيحي لا يُبيح له دينه أن يتزوج من مسلمة ، أو يهودية .

وإذا كانت الأديان تفرض « القيود » فى سبيل حفظ النوع فإن العرف ليفرضها أيضاً .

مثلاً : نرى العبريين كانوا يحرّمون الزواج من الكنعانيين . بحجة أن العبريين شعب الله المختار ، وأن الكنعانيين شعب وضع خلقه الله ليكون رقيقاً للعبريين .

وهذه العقيدة ذاتها نراها عند « اليونان » .

يقول « أرسطو طاليس » - في كتابه السياسة - : « إنما الطبيعة وهي ترمى إلى البقاء هي التي خلقت بعض الكائنات للإمرة ، وبعضها للطاعة ، إنما هي التي أرادت أن الكائن الموصوف بالعقل والتبصر يأمر بوصفه سيداً ، كما أن الطبيعة هي أيضاً التي أرادت أن الكائن السكف بخصائصه الجسمية لتنفيذ الأوامر يطيع بوصفه عبداً ...

ولم ينخدع الشعراء إذ يقولون :

أجل الإغريق على المتوحش حق الأمره .

ما دام أن الطبع قد أراد أن يكون المتوحش والعبدسين . (١)

وعلى ذلك فما كان يجوز لليونانية أن تتزوج من غير يوناني ولا يجوز لليوناني أن يتزوج زواجاً شرعياً بغير يونانية .

كذلك كان الأمر عند الرومان حتى أن الامبراطور « فالينيان » نراه يصدر قانوناً .

يقضى بعقوبة الإعدام على كل رومانية ، أو روماني يرتكب هذا الجرم .
وتقرر القوانين الرومانية القديمة أن زواج الروماني بغير رومانية يقع باطلاً ، وأن الأولاد الذين ينجبون ثمة لذلك يعتبرون أولاد سفاح .
وكذلك كانت تسير العرب في عصرها الجاهلي ، فما كان يجوز للعربية مهما كانت وضعية أن تتزوج من أعجمي (٢) .

(١) ص ٩٣

(٢) الأسرة والمجتمع للدكتور على عبد الواحد وافي

ولا تزال هناك روايات من هذه تراها الآن في بعض « قبائل العرب » حيث يمنعون « العربية » من أن تتزوج من « فلاح » — على حد تعبيرهم — مهما كانت أسرته ، أو مهما كان مركزه .

وإذا كانت هذه النظرية تهدف إلى المحافظة على « الدم » فانك لتتحرر حين تراها بين الطبقات في الشعب الواحد ، اللهم إلا إذا قلنا : إن « ما يحمله الدم » هو الهدف ، على أن هذا لا يؤدي « الحيرة » أمام تقدير بعض الناس .

وعلى أية حال فإن مدلول « نظرية الوراثة » قد أدخله القدماء في اعتبارهم من قبل أن يظهر العلم الحديث .

ولقد جرت سنة الله في الأشياء أن يشبه القرع أصله : فالنبات ينتج له ، والحيوان ينتج حيواناً مثله ، وكذا الإنسان ، سنة الله في خلقه وإن تجد لسنة الله تبديلاً .

ولكن ما هو السر في أن المولود يرث صفات والديه ، وأجداده وخواصهم ؟

السر في « الخلية الجرثومية » أي أن هذه الخلية المودعة في بويضة الأم الملقحة بجرثومة الأب تحمل صفات وخواص الآباء ، والأجداد ، فالوراثة هي :

« انتقال بعض خصائص الأصل إلى الفرع قل ذلك أم كثر » .
والصفات ، أو الخصائص التي يرثها الجنين عن أمه ، أو عن أحد أصولها تأتي إليه عن طريق « بويضة الأم » والتي يرثها عن أبيه ، أو عن

أحد أصوله تانى إليه عن طريق اللقاح بجرثومة الأب .

وهذه الصفات ، أو الخصائص التى يرثها الفرع من أصله منها :

١ — ما ينتقل إليه من أصوله الخاصة القرية ، أو البعيدة .

٢ — وما ينتقل إليه من فصيلته العامة .

٣ — ومنها ما هو جسمى .

٤ — وما هو عقلى .

٥ — وما هو خلقى .

وتنقسم الوراثة إلى أقسام كثيرة باعتبارات مختلفة .

فمن ناحية المؤثرات ، أو المصدر المنقول عنه تنقسم إلى قسمين :

١ — وراثة نوعية .

٢ — ووراثة خاصة .

أما النوعية فهى التى تنقل إلى الفرع الصفات الخاصة بالفصيلة التى ينتمى إليها ، فمثلا : ترى العربى ينماز بالرأس الطويل ، والوجه الضيق ، والأنف الألقى ، وبنسوة مؤخرة الجمجمة تنوءاً شديداً ، كما ينماز بالقامة المربوعة ، والبنية المهزولة .

وترى « الأرمين » يتميزون بالانحدار الشديد فى مؤخرة الجمجمة ، وبالأنف الضخم المنقوس إلى آخر ما يراه من خلاف بين الناس فى الشمال ، وفى الجنوب ، وفى الشرق ، والغرب . سواء من الناحية الجسمية ، أو النفسية .

وأما الخاصة فهى التى تنقل إلى الفرع صفات أصله الخاصة القرية ،

أو البعيدة . وهنا ترى الأفراد على خلاف كبير : فمنهم من يرث من أب واحد ، ومنهم من يرث من الاثنين . ومنهم من يأخذ صفات مخالفة لصفات أصليه ولكنها منتزعة منها وسط بينهما ، كما إذا تزوج أسود من بيضاء فبأق ولدها ولون شعره وبشرته وسط بين لوني شعر والديه وبشرتهما .

وتنقسم باعتبار نوع الصفات الموروثة عن الأصول إلى ثلاثة أقسام :

١ - وراثه جسميه .

٢ - عقلية .

٣ - خلقية .

فأنت فى الصفات الجسميه ترث من أبوك اللون ، والطول ، والقصر ، إلى آخر ما هنا لك بما ترثه من هذه الناحية .

وترث فى العقلية مظاهر الذكاء ، أو الفباوة ، وما إلى ذلك .

وفى الخلية ترث الفضائل ، أو الرذائل : من حلم ، أو طيش ، ومن لين ، أو قسوة ، ومن تقوى ، أو فجور إلى آخر ما هنالك فى هذا الباب أيضاً . وتستطيع أن تقول : إنما من هذه الناحية تنقسم أيضاً إلى :

١ - وراثه طبيعیه أو فطريه .

٢ - وراثه اجتماعيه .

فالوراثه الطبيعیه أو الفطريه وراثه داخلية أى ليست شيئاً خارجاً عن ذات الإنسان نفسه ، وواسطة الانتقال فيها « الخلية الجرثومية » . والقوة العاملة فيها اللقاح التناسلى ، وهذه الوراثة الفطريه توجب أن يشابه الابن أبويه وإخوته مشابهة كثيرة وبهذه الوراثة يكرر الابن الخواص الطبيعیه

للسلالة فتتمايز الأنواع والأصناف ، وتنفرد بعضها عن بعض .

والوراثة الاجتماعية وراثية خارجية أى أن واسطة الانتقال فيها ليست شيئاً داخلاً فى ذات الإنسان كالحلية الجرثومية فى الوراثة الفطرية بل شيئاً خارجاً عن الذات هذا الشيء هو « الحلية الاجتماعية » وما الحلية الاجتماعية إلا العائلة — الزوج والزوجة وثالث بينهما — وإذا كانت القوة العاملة فى الوراثة الفطرية هى « اللقاح التناسلى » فإن القوة العاملة فى هذه الوراثة الاجتماعية شيء آخر هو : « العقل » بوساطة الجهاز العصبي والأعضاء العاملة هى العين والأذن ، واللسان وكل الحواس .

وإذا كنت ترى فى مفهوم الوراثة « المشابهة » أن يشابه الولد أباه فى الوراثة الفطرية ، والفرد قومه فى الوراثة الاجتماعية . فهل هى ضربة لازب ، أو يمكن التغير ؟ .

التغير فى الوراثة يمكن وهو فى الفطرية عبارة عن أن يختلف المولود عن أبويه وعن إخوته . وفى الاجتماعية عبارة عن أن تختلف العادات بين الناس بعضهم مع بعض .

يروى أن رسول الله صلوات الله عليه كان إذا نظر إلى خالد بن الوليد . وعكرمة بن أبي جهل قال : « يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ » لأنهما كانا من خيار الصحابة ، وأبواهما أعدى عدو لله ولرسوله . ومن كلام على بن أبي طالب لمعاوية بن أبي سفيان : أما قولك : إنا بنو عبد مناف فكذا نكذلك نحن . ولكن ليس أمية كهاشم ، ولا حرب كعبد المطلب ، ولا أبو سفيان كعبد المطلب .

وقال الشاعر :

عليّ وعبدُ الله بينهما أبٌ وشَتَّان ما بين الطبائع والفعل
ألم تر عبدَ الله يُلجئ على الندى علياً ويلجأه عليٌّ على البخل
وإذا كانت الوراثة من وظيفتها أن تحافظ على صفات النوع ، فإن
هذا التغيير من وظيفة البيئة .

خذ مثلاً : خضرة النبات وراثية . فالوراثة تحافظ على أن تنتقل هذه
الصفة من الأصل إلى الفرع ما دامت البيئة لم تتغير ، فإذا تغيرت البيئة
فزرعت البذرة مثلاً في الظل ، أو في الظلام نبتت النباتات صفراء ، أو قليلة
الخضرة جداً لأن النور عامل من عوامل اخضرارها ، فإذا ما أعدت هذه
البذرة إلى مكان يغمره النور رجعت خضراء .
وتعليل ذلك أن تغير البيئة كان عاملاً لتغير اللون ، فلما زال هذا
العامل عاد عامل الوراثة حراً يفعل فعله .

ومن هنا يعمل المربون على تغيير الصفات الإنسانية بتغيير العوامل
البيئية العاملة فيها . ويقولون : « إن عامل الوراثة كالوتر الموسيقي ، وعامل
البيئة كالْموسيقى الضارب على الوتر يغير أنغامه من لحن إلى لحن .

لكن هل السنن التي تخضع للوراثة لمؤثراتها مهمة أو معلومة مضبوطة ؟
يقول « داروين » في كتابه أصل الأنواع ^(١) : « إن السنن التي تخضع
للوراثة لمؤثراتها مهمة لدينا غالباً ، ولا يتسنى لأحد أن يستجلى غامض
ذلك السر الذي تورث به الصفات الخاصة في أفراد النوع الواحد ،

(١) ترجمة الأستاذ اسماعيل مظهر ص ٩٤

أو الأنواع المختلفة ، في حين ، ولا تظهر موروثية في حين آخر . أو لماذا يرث الطفل شيئاً من صفات أبيه أو جده ، أو بعض أسلافه السابقين . أو لماذا تورث الصفة الخاصة فتنقل من الذكر أو الأنثى إلى أعقابهما على السواء أو إلى جنس واحد منهما دون جنس أكثر من انتقالها إلى النسل الذى هو من ذات الجنس الذى تورث عنه الخاصية ذكر أو أنثى ؟ ، وقد عنى بدراسة الوراثة والكشف عن قوانينها عدد كبير من العلماء من أشهرهم « مندل ^(١) » ، وشارل نودان ^(٢) » ، و « ريبو ^(٣) » .

١ — هو : يوحنا مندل المشهور في الأوساط الكنسية باسم « جريجور » ولد بالمسنة ١٣٢٢ وتوفي ببلدة « برين » سنة ١٨٨٤ ولقد اختير قسيساً لهذه البلدة التى توفى فيها سنة ١٨٤٧ ولم تشغله شئون الكنيسة عن متابعة الدرس ، والبحث . مكث سبع سنين كاملة يبحث في الوراثة في عالم النبات ، غير أن بحوثه لم تقابل باهتمام في أول الأمر . ولعل ذلك كان راجعاً إلى اشتغال العلماء حينئذ بنظرية « دارون » في أصل الأنواع ، ولم يتح لبحوثه الدبوع إلا منذ السنة الأخيرة في القرن التاسع عشر . ويرجع الفضل في ذبوعها إلى الاستاذ « دوفريس » أحد علماء النبات الهولنديين . وقد اهتدى مندل إلى معظم قوانينه بفضل ما قام به من التجارب على النباتات ، وبخاصة على زهرة البسلة .

٢ — من أشهر علماء النبات الفرنسيين : ولد بأوتان سنة ١٨١٥ وتوفى بأنتيب سنة ١٨٩٩ حصل على دكتوراه في العلوم سنة ١٨٤٢ وعين عضواً بأكاديمية العلوم سنة ١٨٦٣ وقد وقف قسطاً كبيراً من نشاطه العلمى على دراسة الظواهر للوراثية في النبات .

٣ — فرنسى من أشهر فلاسفة الغرب في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ومن أكبرهم فضلاً على علم النفس ، ولد في سنة ١٨٣٩ وتوفى =

ولقد وجه « ريبو » معظم عنايته إلى دراسة الوراثة النفسية ، وقوانينها
فتناول وراثة الغرائز ، والإدراك الحسى ، والذاكرة والعادة ، والذكاء ،
والميل ، والإرادة ، والأمراض النفسية . ثم استخلص طائفة من القوانين
التي تخضع لها الوراثة ، وخاصة في الناحية النفسية .

ومن القوانين التي توصل إليها الباحثون في الوراثة :

١ — قانون الوراثة المتحدة الأزمنة : ومعناه أن الأصل قد يظهر عنده
في مرحلة ما من مراحل حياته صفة عارضة جسمية ، أو نفسية ، ثم تظهر
هذه الصفة نفسها عند الفرع حينما يبلغ السن التي ظهرت فيها عند أصله .

روى « دارون » أن شخصاً قد أصيب بالعمى لسبب غير معلوم وسنه
سبع عشرة سنة ، فأصيب به سبعة وثلاثون فرداً من أولاده ، وأحفاده
في السن نفسها التي أصيب فيها به .

وروى « سيدوك » أن رجلاً قد أصيب بخنصره بانحناء نحو باطن
الكف بدون أن يكون لذلك سبب معروف ، وأن هذه الظاهرة نفسها

== سنة ١٩١٦ أنشأ في ١٨٧٦ المجلة الفلسفية التي أصبحت بفضلها من أشهر مجلات
أوروبا ، وأكثرها ذيوفاً ، وأكبرها قيمة في مختلف فروع الفلسفة . عين في سنة
١٨٨٥ أستاذاً لعلم النفس التجريبي « بجامعة السربون » وفي سنة ١٨٨٩ ، انتخب
عضواً « بأكاديمية العلوم الخلقية والسياسية » بباريس ، وهي إحدى الأكاديميات
الخمس التي ينتظمها المجمع العلمي الفرنسي . وقد كتب في علم النفس وحده عشرين
مؤلفاً . وكتب في غيره من فروع الفلسفة عدة مؤلفات وترجم الكثير من
مشاهير الفلاسفة . هذا إلى بحوثه العديدة في مختلف المجالات .

قد بدت عند ولديه في السن نفسها التي بدت فيها عنده .
وروى « سكيروول » أن أسرة قد أصيب جميع أفرادها بالجنون
في سن الأربعين .

« وقرر لوكاس » أن بعض الأمراض المخية كداء « النفطة » و « الصرع »
تنتقل عن طريق الوراثة إلى الفروع ، وتظهر لديهم في السن نفسها التي
ظهرت فيها عند أصولهم .

ومن هذا النوع ظاهرة انتقال الصلع بطريق الوراثة في الأسرات .
وليست الوراثة المتحدة الأزممة مقصورة على الأمراض والعاهات ،
بل تظهر كذلك في كثير من الصفات كظهور الأسنان في سن معينة ،
وكظهور غريزة حب التكوين والتخريب في السنة الثانية ، وهكذا ظهور
كل غريزة من الغرائز في ألبانها المعروف .

٢ — ومنها قانون الوراثة الخاصة المباشرة : ومعناه أن الطفل يرث
عن أصلية المباشرين « أبيه وأمه » .

٣ — وقانون الوراثة الخاصة غير المباشرة : ومعناه أن ترث عن أحد
أجدادك أو إحدى جداتك من جهة الأب ، أو من جهة الأم من الدرجة
الأولى أو من الدرجات التي تليها من صفات لم تظهر في أحد أبويك ،
ولأنما كانت مستكنة قابلة للانتقال ، وهذه ترجع في الحقيقة إلى الوراثة
الخاصة المباشرة ، فأنت لم ترث من جدك ، وإنما ورثت من أصلك المباشر
الذي خلقت من مائه على معنى أن هذه الصفة التي لم تظهر في الأصل المباشر
كانت موجودة لديه في صورة مستكنة .

٤ — قانون التغلب في الصفات الموروثة : ومعناه أنه قد تغلب صفة أحد أبويك على صفات الأب الآخر ، فستكن الصفات المغلوبة ، وتختفي مظاهرها ، حتى ليخيل إليك عدم وجودها ، مع أنها تكون في هذه الحال موجودة بالقوة ، وآية وجودها بالقوة أنها قد توجد في الفرع بالفعل .

٥ — قانون وراثة الحالات العارضة وقت العلوق : ومعناه أن كثيراً من الحالات العارضة المؤقتة التي تلبس الأب أو الأم وقت العلوق ، أي أثناء عملية التلقيح تنتقل إلى الجنين كما تنتقل إليه الصفات الثابتة المستقرة في أبويه .

فيكاد يجمع المشتغلون ببحوث الوراثة على أن الجنين الذي يتكون في حال نشوة أبيه أو أمه ينشأ غالباً مصاباً بالبله ، أو الذهول الدائم ، أو الصرع ، أو ضعف الحواس ، أو الجنون . ذلك لأن هذه الحال تؤثر في المادة الأولية التي يتكون منها الجنين .

ويقول الدكتور « أوجست فوريل » ، أستاذ الأمراض العقلية ومدير مستشفى المجاذيب بزوريخ « سويسرا » : « إن الخمر تؤثر تأثيراً مباشراً في الإقلال من النسل ، ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة في روسيا بمقارنة الذين يتعاطون الخمر ، والذين يحرمونها إذ نرى أن الآخرين أكثر إنسالا من الأولين وقد أثبتت إحصائيات الدكتور « ييزولا » ، أن تعاطي الخمر مرة واحدة قد يكون له آثار سيئة على النسل . ولهذا السبب وغيره نستطيع أن نقدر الآثار السيئة التي قد تنتج عن أداء « العملية الجنسية » تحت تأثير الخمر (١)

ويروي الدكتور علي عبد الواحد وافي في كتابه : « الوراثة والبيئة »

(١) المسألة الجنسية للدكتور « أوجست فوريل » ح ٢ ص ٦١

أن الأساتذة : « ديهو » و « فوجيه » أثبتوا في تقريرهم الذى قدموه إلى « أكاديمية العلوم » بباريس : « إن الجنين الذى يتكون فى حالة يكون فيها أحد أصليه فاقداً وعيه بخمر ، أو مخدر ينشأ فى الغالب أبله ، أو ضعيف القوى العقلية ، أو مجنوناً ، أو مصاباً بالصرع ، وأيدوا حكمهم هذا بإحصائيات دقيقة واضحة هدتهم إليها ملاحظاتهم وتجاربهم .

وليس هذا النوع من التأثير مقصوراً على حالات السكر ، بل يتحقق فى كثير من الحالات الأخرى التى يكون أحد الأبوين متليساً بها فى أثناء العلوق ولا أدل على ذلك من حادثة غريبة رواها العلامة « لوكاس » عن امرأة كان بينها وبين طبيب أسرتها علاقات غير شريفة ، فقد حدث مرة فى أثناء اتصالها الأثم بعشيقتها أن خشيت مباغتة زوجها وهما على هذه الحال فعراها رعب شديد ظل جسمها ينتفض من جرائه طول مدة المقاربة ، وقد جاءت من هذا السفاح ببنت نشأت منذ ولادتها مصابة بهزة دائمة شاملة لجميع أجزاء جسمها .

ومن هنا تدرك الحكمة فى تحريم الإسلام للخمر : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » (١) .

(١) المائدة « سورة ٥٠٠ » آية ٩٠ ، ٩١

٦ - قانون مصدر الصفات الموروثة : ومعناه أن مجموع الصفات التي تنتقل إلى الفرع من أصله توزع على النحو الآتي :

- أ - النصف من الصفات الظاهرة أي غير المستكنة في أصله المباشرين .
- ب - الربع من الصفات الظاهرة في أجداده من الدرجة الأولى .
- ج - الثمن من الصفات الظاهرة في أجداده من الدرجة الثانية .
- د - جزء من ستة عشر جزءا منها من الصفات الظاهرة في أجداده من الدرجة الثالثة ... وهكذا .

وهذا القانون تقريبي . ومنه ترى أن الجزء الأكبر يرثه الإنسان من أبويه المباشرين .

٧ - قانون وراثة الصفات الخارجة عن المعتاد : ومعناه أنه إذا كان في الأصل المباشر صفة خارجة عن المعتاد رفعة اوضعه ، وانتقلت إلى فرعه ، فإنها تنتقل إليه غالباً بحال أقرب إلى المعتاد .

فإذا كنت طويلاً طويلاً خارجاً عن المعتاد ، أو قصيراً قصيراً فاحشاً ، أو ذكياً ذكاً حاداً ، أو غيبياً غباوة بالغة ينشأ ابنك غالباً قريباً إلى المعتاد في هذه الصفات .

والسبب في ذلك أنك قد عرفت سابقاً أن الفرع لا يرث كل شيء من أبويه المباشرين ، بل يأخذ منهما ومن أجداده .

٨ - قانون الوراثة في الصفات العقلية والخلقية : ومعناه أنك لا ترث الصفات العقلية والخلقية مباشرة ، وإنما ترثها عن طريق أن ترث مصدرها أولاً ، ثم تأتي هي . أي أن الوراثة العقلية والخلقية ليست

إلا مظهراً من مظاهر الوراثة الجسمية ، أو نتيجة لازمة لها .

ومعظم هذه الصفات العقلية والخلقية يتأخر نضجها ووضوحها إلى دور البلوغ أى أن جرثومة هذه الصفات توجد فى الجنين منذ نشأته ، وتبدوا بوادرها بعيد الولادة . ولا يكمل نضجها إلا فى دور البلوغ ^(١)

هل تورث الصفات المكتسبة ؟

ترى بعض الناس يكتسبون قوة جسمية ، أو عقلية ، أو خلقية بفضل مجهودهم الفردى ، أو على العكس من ذلك يصابون فتضعف قوة من هذه القوى . فهل تورث هذه الصفات المكتسبة كما تورث الصفات الفطرية أو أنها صفات عارضة غير قابلة للانتقال وراثياً ؟

خلاف فى هذه المسألة :

أما جماعة الارتقائيين كدارون ، وهيجل ^(٢) ، وسبنسر ، ولا مارك ^(٣)

(١) الوراثة والبيئة للدكتور على عبد الواحد وفى .

(٢) هو : جورج وليام فردريك هيجل فيلسوف جرمانى - ١٧٧٠ - ١٨٣١ - كان من الفلاسفة المثاليين ، وكان حامل لواء الفلسفة فى عصره فى المانيا .

(٣) من أشهر من أنجبهم الأمة الفرنسية . وأضحى مجدا . ولد فى أغسطس سنة ١٩٤٤ وتوفى فى ديسمبر سنة ١٨٣٩ . ودخل فى أوائل أيامه الكنيسة ، وقفل فيها إلى خدمة الجيش ، فصار كاتباً فى إحدى البيوتات المالية ، وأكب فى أول عهده على دراسة الظواهر الجوية ، ثم رغب عنه إلى علم النبات وألف فى نباتات فرنسا كتاباً فى ثلاث مجلدات ، ثم انتخب رئيساً لجماعة المباحث النباتية الملكية وبعد أن قضى من علم النبات ما ربه أكب على دراسة علم الحيوان ، ثم عين أستاذاً لتدريس

ومن تابعهم فيقولون : لأنها تورث ، ويستدلون على ذلك بأدلة كثيرة منها :

١ - إن سواد البشرة في سكان المناطق الحارة لم يكن طبيعياً في أصولهم ، وإنما اكتسبوه اكتساباً تحت تأثير البيئة الطبيعية وأصبح على توالي الأيام والزمن صبغة وراثية يأخذها الفرع عن الأصل .

٢ - جرت عادة الأسكيمو - سكان المناطق الشمالية في أمريكا - أن يقطعوا أذنان كلابهم التي يعدونها لجر عرباتهم على الثلج ، وقد لوحظ أن معظم أولاد هذه الطائفة من الكلاب تولد بدون أذنان ^(١) .

٣ - لاحظ دارون ^(٢) أن عظم جناح البط الأهلى أقل من عظم الساق زنة ، وذلك بعكس ما للبط الوحشى في هذه الأعضاء ذاتها يقول : ويمكن أن نعزو هذا التغير إلى أن متوسط طيران البط الأهلى يقل كثيراً

= « تاريخ الحيوانات الدنيا الطبيعى » وله كتاب « تاريخ ذوات القفار الطبيعى » في سبعة مجلدات ضخام وهو من أشهر كتبه وله كتاب « فلسفة الحيوان » في ثمانية مجلدات . ويعتبر هذا الكتاب حدا فاصلاً بين عهدين علميين . عهد القول بالخلق المستقيم ، وعهد القول بالنشوء على ما يقوله مؤرخو الألمان ، إذ يقولون بأن مذهب النشوء تم بناؤه في مائة عام ، بدأها العلامة « كاسبار فردريك » و « ولف » وتوسطها « لامارك » هذا بكتابه « فلسفة الحيوان » وأتمها العلامة : « دارون » بكتابه أصل الأنواع . ومن أقوال « لامارك » هذا : « الجهاز العصبى مولد الأفكار وكل أعمال العقل » : « الإرادة غير حرة » : « النباتات والحيوانات لا فرق بينها إلا بالحسن » .

(١) المصدر السابق .

(٢) في كتابه أصل الأنواع ترجمة الاستاذ اسماعيل مظهر ص ٩١

عن متوسط مشيه ، على العكس مما في طبيعة أصوله التي لا تزال في حالتها الوحشية الأولى .

ويرى « ويزمان »^(١) ومن تابعه أن الصفات المكتسبة غير قابلة للانتقال وراثيا ، ويستدلون على ذلك بأدلة منها :

١ - عادة الختان منتشرة عند العرب واليهود من زمن مديد ومع ذلك يولدون غير مختونين .

٢ - يلبس الصينيات أحذية حديدية لتصغير أقدامهن منذ عصر سحيق ومع ذلك لم تصغر أقدامهم بطريق الوراثة .

٣ - نرى عادة الوشم منتشرة عند بعض القبائل ومع ذلك لم ترها تنتقل من الأصل إلى الفرع بطريق الوراثة .

٤ - نتعلم القراءة والكتابة من آلاف السنين ومع ذلك فلم تر من يولد يقرأ ويكتب ، ولعل الزمن يحقق لنا هذه الوراثة فيريح الأبناء عما يلاقونه من نصب في سبيل الأمية .

والحق في هذه المسألة أن الصفات المكتسبة تورث إذا أثرت في الجهاز العصبي أو بعبارة أخرى في المادة الجرثومية ، وأحدثت بها تغييرا ، أما إذا لم تؤثر فيها فلا تورث .

ومنها ما هو قابل للوراثة ، ومنها ما هو غير قابل .

فالصفات التي لا تقبل الانتقال : الختان ، والوشم وثقب الأذن .
ومن التي تنتقل : لون البشرة الذي يكتسبه الفرد بفعل البيئة الطبيعية ،

(١) عالم ألماني ١٨٣٤ - ١٩١٤

وبعض حالات الجنون ، والشلل إلى آخر ما يورث مما هو مشاهد في هذه الناحية .

ويترتب على هذا الخلاف في توريث الصفات المكتسبة تحديد وظيفة الوراثة . فما هي ؟

من يقول : بأن الصفات المكتسبة لا تورث ، فوظيفة الوراثة عنده هي « مجرد المحافظة على القديم » .

فالوراثة إذن . هي التي تُقدر مصيرك ، وهي التي ترسم مستقبلك من الناحية الجسمية ، والعقلية ، والخلقية : فطبائعك موروثية ، وميولك موروثية ، وغرائك موروثية ، وانفعالاتك ، وعواطفك ، وسائر قواك العقلية ، ونزعاتك الفردية ، والاجتماعية كل ذلك موروث ، ولا حيلة لك فيه .

فالإنسان الفاضل هو الذي أتاه « السعد » فولد في محيط طيب ، وفيه وراثات حسنة .

والإنسان الخاسر هو الذي هبط عليه « النحس » فولد في بيئة سوء حاملا وراثات سوء .

وهنا يأتي هذا السؤال : « أى فضل للأول . وأى ذنب للآخر ؟ ١١١٩
هل خيروا ذلك الأول فاختر أن يكون ابن ذلك الرجل الطيب ؟ ١١١٩
وهل خيروا هذا الثانى فاختر أن يكون ابن ذلك النحس الشرير ؟ ١١١٩
من القواعد المقررة : « أنه لا واجب على من ليس بحُر ، وما دُمنا
مقيدين بوراثة لا يدلنا في الخروج عنها فإذا يتبقى لنا من « فكرة الواجب ،

في نظر هذه الفلسفة الطبيعية التي تعمل أعمال الناس بالوراثات ؟ ١١١
الحق أن هذا الرأي ، أو هذه الفلسفة تيجاد تقضى على
اهتمامنا بالأخلاق .

أنت إذا كنت تعتقد أن كيفية سلوكك تتوقف إلى حد ما على مشيئتك .
فمن الطبيعي أن تسأل نفسك . ماذا ينبغي أن تفعل ، وماذا ينبغي أن تترك ؟
أما إذا كنت تعتقد أنه قد سبق عليك قضاء ورائي بأن يكون سلوكك
على نحو معين ، فلا معنى إذن . لأن تسأل نفسك . ماذا تفعل ،
وماذا تترك ؟

إنه لا يتوقف عليك أن تكون صالحاً أو طالحاً ، خيراً أو شراً ،
سعيداً أو شقيماً ، وإنما يتوقف ذلك على شيء ليس لك فيه إرادة وليس لك
فيه اختيار . بل هو حتم موروث .
وهنا يتهم أبو العلاء فيقول :

المجبرون يناظرون بباطل فاسمع مقالهم بغير بيان
كُلُّ يَقُولُ : أَرَى الْإِلَهَ أَضَائِي وَأَرَادَ بِي مَا كَانَ عَنْهُ نَهَائِي
إِنْ كَانَ ذَا فَتَعُوذًا مِنْ رَبِّكُمْ وَدَعُوا تَعُوذَكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ (١)
وإذا كان أبو العلاء « يتندر » بمثل هذا القول فإنه ليس من العقل في
شيء أن تُسْقِطَ يَدَيُ الْإِنْسَانِ وَرَجْلَيْهِ ثُمَّ تَقُولُ لَهُ : « انْهَضْ وَاجْر » .

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء جمع وتحقيق لجنة من رجال وزارة المعارف
بإشراف الدكتور طه حسين مطبعة دار الكتب المصرية .

« ثم يقول « آندره كريسون » — في كتابه المذاهب الفلسفية (١) — :
إن الفلسفة الطبيعية — أى هذه التى ترد كل شيء إلى الوراثة — لا تبقى
للأخلاق على قيمة ، ولا على سلطة ، ولا على معنى . فأسئلة الأخلاق
فى نظرها عبث ، ومواعظها هزل ، وأحكامها ، وموائيقها أجدر بالصبيان .
لا قاعدة فى الحياة تقبل البرهان فى فلسفة كهذه ، إنما نحن كما نحن ، فلا مبرر
لعدل ، ولا لخير .

وليت شعرى ما عسى أن يحصل حين يدرك جميع الناس هذه الحقائق ؟
أى مجتمع بشرى يستطيع إذ ذاك أن يحتفظ بتوازنه ؟
وإن « كريسون » ليقدم لهذه النتيجة بقوله :

لأجل أن ينشرح صدورنا لفلسفة من الفلسفات لا بد أن تتوفر لنا هذه
الأسباب التى تحمل على العيش ، وتدعو للحرص عليها ، لا بد لها أن نعلمنا
كيف يجب أن نسلك سبيلنا فى الحياة .

لا بد أن يكون من شأنها أن تدل الناس على العدالة وأن تدلهم على
الخير اللذين هما من شرائط الحياة الاجتماعية . لا بد أن تكشف لنا قيمة
المبادئ التى تعتمد عليها فإذا فقدت فلسفة من الفلسفات هذه المزايا ، فقدت
تكون صحيحة تقتضى أن نطأطئ الرأس أمامها ، ولكننا لن نكون إلا
ثقيلة الوطأة مجردة عن الإنسانية . وعلمنا قبل أن نتقبلها أن نرجع البصر
فيها مرات ومرات ، وأن نقبلها على وجوهها ، حتى إذا ما أثار تمحيصنا لها

(١) ص ١٠٩ ، ١١٠ « ترجمة الدكتور حكمت هاشم أستاذ الفلسفة العامة
بكلية آداب سوريا » .

شيئاً من الريب . كان من حقنا ومن واجبنا أن نطرح اعتناقها ، وأن تأبى التسليم بها .

ثم يقول :

فلننظر ، على ضوء هذه المبادئ في الفلسفة الطبيعية ، إنها لتبدوا لنا من بين جميع الفلسفات التي تصوّرُها البشر أخطأ أخلاقية ، وأجهدا لقيمة العلم ، وأدناها لإثارة للعزم والنشاط .

أخطأ أخلاقية ، لأن أحكامنا الأخلاقية إنما تعتمد على فكرة قيمة الأفراد ، وعدم قيمتهم الأخلاقية ، فنحن لا نحترم بعض الناس إلا لأنهم في نظرنا ذوو قيمة أخلاقية ، ونحن لا نحقر بعضهم الآخر إلا لأنهم غير ذوي قدر أخلاقي ، فنحن نشعر أن علينا فعل كل شيء من أجل أن نكتسب تلك القيمة الأخلاقية ، أو على الأقل من أجل ألا نفقدها .

ولكن ما هي مكانة هذه القيمة الأخلاقية في الفلسفة الطبيعية ؟

الجواب المحتم : لا شيء .

لماذا ؟

لأن أعمال الناس كلهم تعال في تحليلات الفلسفة الطبيعية بالوراثات وبالحيط ، فلا فضل لك في شيء ، ولا ذنب لك في شيء ، لأن الكل موروث وموروث .

وقبل أن أنتقل إلى الرأي الثاني الذي يخالف هذا الرأي ويعتقد أنك عدين بأهم صفاتك إلى التربية المكتسبة أقول : (إن على رأس هذا الفريق

الذى يُرجع كل شيء إلى الوراثة « سبنسر »^(١) و « أوجست كمت »^(٢) و « شوبنهاور »^(٣) و « جولدتون » و « فونتليل »^(٤) .

وأما « جان جاك رسو »^(٥) و « جون لوك »^(٦) و « آدم سميث »^(٧) و « هيلفيتيوس » و « ستوارت ميل »^(٨) و « ديلاج » فعلى رأس من يخالف

١ — هربرت سبنسر : فيلسوف انجليزى ١٨٢٠ — ١٩٠٣ حاول أن يضع العلوم كلها فى نظام عام . وكانت فلسفة مؤسسه على مذهب النشوء . رقى الأبحاث الأخلاقية والاجتماعية والتربية ، وألف كتباً كثيرة مفيدة فى النفس ، والأخلاق ، والاجتماع ، والتربية ، والسياسة ، ويعد من أقطاب العلم الحديث .

٢ — أوجست كمت : فيلسوف فرنسى ١٧٩٨ — ١٨٥٧ مؤسس الفلسفة الوضعية وهذا النوع من الفلسفة يرى ضرورة تنظيم معلومات الإنسان عن العالم وعن الإنسان وعن الجمعية وجعلها كلها مجموعاً يلائم بعضه بعضاً ؛ وأنه لا يصح تأسيس علم ما إلا على المشاهدات الخارجية ، وله اليد الطولى على علم الاجتماع ، وكان غرضه فى الحياة أن يكون مصلحاً للفكر ليصلح العمل .

٣ — انظر حاشية ص ٥٠ .

٤ — كاتم سر الجمع العلمى الفرنسى عمر طويلاً : فقد عاش مائة عام تماماً من سنة ١٦٥٧ — ١٧٥٧ ، وهو قريب الكاتب المسرحى الشهير « كورنى » بسط العلوم بحيث جعلها فى متناول إيدى متوسطى الإدراك .

٥ — جان جاك رسو : كاتب وفيلسوف فرنسى ١٧١٢ — ١٧٧٨ م ربي فى أول أمره تربية خامله ، ولم يكن له من المال ما يكفيه ، ووظف كاتباً عند أحد أصحاب الأملاك ، ثم ظهر نبوغه فى الكتابة والتفكير فانقطع إليهما وألف جملة =

ذلك الرأى الأول، ويقرر أن الصفات المكتسبة تورث ، وأن أثر الوراثة في الإنسان ليس شيئاً مذكوراً بجانب أثر البيئة ، بل لقد بالغ أفراد هذا الفريق فذهب إلى أنك تستطيع أن تتغلب على جميع آثار الوراثة حتى ما يتصل منها بنوع الحيوان وتكوينه الجسمى ، وأشكال أعضائه، وأجهزته،

= كتب مفيدة أشهرها: «أميل» في التربية رأى فيه أن التربية الصحيحة إنما تكون بترك الولد للطبيعة تربيته وله كتاب «الاعتراف» ذكر فيه تاريخ حياته ، وله مبادئ في السياسة والآداب سامية كانت من عوامل الثورة الفرنسية .

٦ — جون لوك : فيلسوف انجليزى ١٦٣٢ — ١٧٠٤ م كان متأثراً بتعاليم ديكارت وكانت أبحاثه الفلسفية متضمنة لاهوتا ، وسياسة ، واقتصاداً ، وتربية ، ألف رسالة سماها «العقل البشري» كان يرى فيها أن العقل يجب أن يترك حراً ليتقد أى شئ ، ويجب الا يوضع له أى حد بواسطة أية سلطة . وكان يرى أن مصدر معلوماتنا إنما هو التجربة ، وبحث في سلطة الحكومة ، ورأى ضرورة تنازل الناس عن بعض حريتهم للسلطة العامة ، وعلى الملك المحافظة على حقوق الناس ، فإذا لم يحافظ فلا حق له في الملك .

٧ — آدم سميث : فيلسوف انجليزى ١٧٢٣ — ١٧٩٠ م كان أستاذ المنطق والأخلاق في جامعة غلاسكو ، ويعد واضع علم الاقتصاد السياسى . وجه الأنظار إلى البحث في حرية التجارة ، والعمل ، ورأس المال بحثاً علمياً .

٨ — ابن المؤرخ والعالم الاقتصادى الوطنى والقومى الكبير «فيل» وهو «اسكوتلاندى» الأصل . ادخل التجارب في العلوم . وله كتب في المنطق الفطرى ، والاستنتاجى . صاحب كتاب التربية من سنة ١٨٠٦ — ١٨٧٣ .

وأوضاعها : فمن المستطاع في نظر هؤلاء تحويل الأنواع الحيوانية واستبدال بعضها ببعض بأحداث بعض تغييرات في البيئة .

بل يذهب بعضهم إلى أبعد من هذا كله فينكر أثر الوراثة ، ويعتقد أن الناس كلهم يكادون يكونون سواسية بحسب الفطرة ، وأن الفروق التي تشاهد بينهم في الصفات الحسية ، والعقلية ، والخلقية ، ليست في واقع الأمر إلا نتيجة لما يكتسبونها من ظروف بيئتهم ، وما أخذوا به من تربية مقصودة ، ويصدق هذا في نظرهم حتى على الأمور التي وقر في أذهان الناس أنها وراثية خالصة كلون البشرية ، وطول القامة ، أو أقصرها إلى غير ذلك .

فلون البشرية الإنسانية مثلاً يرجع سببه إلى مناخ البيئة ودرجة حرارتها . وطول القامة أو قصرها ، يتوقف على نوع الطعام وكميته ، وما يكتسب الكائن من ظروف ، ويعتوره من أحوال خارجية تعوق نموه ، أو تذلل وسائله .

ونوع الجنين ، كونه ذكراً ، أو أنثى ، يتحدد بطعام الأم ، ودرجة حرارة الرحم ، ومؤثرات أخرى عارضة .

ويقول ديكارت ، ^(١) : « إن العقل موزع بين الناس بالنسوى ،

(١) فيلسوف فرنسى يعد مؤسس الفلسفة الحديثة — ١٥٩٦ — ١٦٥٠ —
لم يقنع بالأدب فاشتغل بالفلسفة ولم يرض عن فلسفة « أرسطو » التي كانت شائعة في عصره ، والتي كانت تؤخذ قضايا مسلمة من غير بحث فجاء ديكارت ووضع مبادئ جديدة أهمها .

وأن قوة الإصابة في الحكم ، وتمييز الحق من الباطل تتساوى بين كل الناس بالفطرة ، وأن اختلافنا في آرائنا لا ينشأ من أن بعضنا أعقل بفطرته من بعض ، وإنما ينشأ من أننا نوجه أفكارنا طرائق قددا ، .

و « جون لوك » يشبه عقل الطفل بصحيفة بيضاء ينقش عليها المرء ما يشاء .

ويقول « ديلاج » إن الطفل إذا أشبه والديه أو أحدهما في الصفات العقلية والخلقية ، فإن ذلك لا يرجع إلى الوراثة ، وإنما يرجع إلى اتحاد ما أحاط بهما من بيئة واكتنفهما من ظروف ، وأثر في حياتهما من شئون خارجة عن تكوينهما الأصلي .

ويروون أمثلة واقعية عن « أولاد الذئاب » تبرى مبلغ ما للتربية المكتسبة من أثر نسوق شيئاً منها .

في بعض المقاطعات الشمالية الغربية من بلاد الهند غابات تأوى إليها

= (١) عدم التسليم بشيء مالم يفحصه العقل ، ويتحقق من وجوده ، فما كان مبنيًا على الخدس والتخمين ، وما كان منشؤه العرف والعادة يجب أن يرفض .

(ب) يتبدأ في البحث بأبسط الأشياء وأسهلها ، ثم يتوصل منها إلى ما هو أكثر تركباً وأغمض فهما حتى نصل إلى المقصود ، ولا يحكم بصحة مقدمة حتى يتحقق منها بالإمتحان . وكان يؤمن بالله وبخلود الروح ، وقد أثارت تعاليمه رجال الدين في عصره ضاربوه .

الذئاب ، وهذه الذئاب تغير على سكان القرى المجاورة ، فتختطف أولادهم ، وتقترب معظمهم ، ولكنها تبقى أحيانا على بعضهم ، وتقوم بحضانتهم كما تقوم بحضانة أولادها تحت تأثير بعض العوامل النفسية ، والجسمية ، والإفرازية ، وقد عثر على بعض هؤلاء الأولاد في الكهوف ، والغابات ، وردوا إلى بيئاتهم الإنسانية الأولى بعد أن قضوا أمدا طويلا بين الذئاب . وقد لوحظ أنهم أصبحوا مشبهين للذئاب في معظم صفاتهم ، وبجوردين من أهم صفات فصائلهم الأولى ، وأنه قد أصبح من العسير أخذهم بأعمال الإنسان ، وعاداته فكانوا يسلكون مسلك الذئاب ، ويربضون ربضتها ، ويعوون عوامها ، ويقطعون ما يقدم لهم من غذاء بالطريقة نفسها التي يعالج بها الذئاب غذاءها ، ويمزقون ملابسهم ، ويميلون إلى العزلة ، ويؤثرون الاتجاه إلى الأماكن المظلمة ، ولقد بذلت جهود كثيرة لأخذهم بالعادات الإنسانية ، وتعليمهم الكلام ، ولكن معظم هذه الجهود ذهبت أدراج الرياح .

وقد عني الأستاذ « فلانتين بول » بملاحظة ولد من هؤلاء اشتهر باسم « سينينخار » — كان قد عثر عليه بعض الهنود في كهف فحماه إلى أحد ملاجئ الأيتام في ٤ فبراير سنة ١٨٦٧ وسجل في كتابه : « الحياة في أدغال الهند » ما لاحظته بصدد هذا المخلوق في العبارات الآتية : ننقلها عن الدكتور علي عبد الواحد وافي في كتابه « الوراثة والبيئة » .

يقول : كانت تبدو عليه أمارات العته كانهضاض الجبهة ، والذئابة ، واضطراب الحركات ، وكان تعبيره عن انفعال الغضب يتمثل في التكشير

عن الأناب كما يفعل الحيوان المفترس . وكان يعتمد في تعرف الأشياء على حاسة الشم أكثر مما يعتمد على غيرها كما تفعل فصيلة الذئاب . وكان من المتعذر بدون رقابة شديدة مستمرة أن يتابع عملاً واحداً مدة طويلة ويحصر فيه انتباهه . فكان إذا كلف حمل سلة مثلاً ظل يحملها ما دام يحس ضغط المراقبة ، فإذا ضعفت المراقبة أو زالت أسقط السلة من يده . وكان طول ذراعه نحو ٧٤ سنتيمتراً ، أى يكاد يكون مساوياً لطول رجله كما هو شأن الحيوانات التى تمشى على أربع . وقد ظل بعد العثور عليه يمشى على أربع كما كان يفعل من قبل ، ثم عود المشى على رجلين . ولكن هذه العادة الجديدة لم ترسخ لديه إلا بعد بضعة أشهر . وكان إذا مشى يتف وقفات فجائية ، ويسير سير المتعثر ، وكان لا ينفك يحرك رأسه حركات سريعة يمنة ويسرة ، ويحدق بنظره كمن يترقب هجوماً ويتهبأ لانتقامه وقد ظلت هذه حاله حتى قضى نحبه .

وعلى هذا - أى على رأى من يقول بأن الصفات المكتسبة تورث - فوظيفة الوراثة أن تقوم فى آن واحد بوظيفتين اثنتين :

١ - المحافظة على القديم إلى حد ما .

٢ - العمل على تغيير هذا القديم .

يعنى - هذا الأخير - أن الوراثة تزود الفرع منذ الولادة بصفات لم يولد الأصل مزوداً بها ، ولم تكن فطرية فيه ، وإنما سلحته بها البيئة .

« وبعد ، فإن الذى يقول : إن الأثر كل الأثر للوراثة مخطئ ، والذى يقول : إن الأثر كل الأثر للتربية مخطئ ، والذى عليه الرأى الصحيح

أن لكل من الوراثة ، والتربية المكتسبة أثراً كبيراً في نشأة الطفل ، وتطوره من الناحية الجسمية ، والعقلية والخلقية . فأنت لست مديناً في تكوينك للوراثة وحدها ، ولا للتربية وحدها ، بل أنت مدين بذلك لهما معاً .

وهذا هو ما أقره « المؤتمر الدولي الخامس للتربية العائلية » ، في دورته المنعقدة في « بروكسل » سنة ١٩٣٥ وقد شهد هذا المؤتمر ، واشترك في بحوثه ممثلون لأربعين دولة ، وبلغ عدد أعضائه نحو ٥٠٠ من كبار الباحثين العالميين في هذه الشؤون . ونذكر فيما يلي أهم قرارات هذا المؤتمر التي تتعلق بهذا الموضوع نقلاً عن الدكتور على عبد الواحد . وافي أيضاً .

١ - ليست الطباع الإنسانية من الأمور الثابتة الجامدة غير القابلة للتحويل والتغير . لأن عليها يعتمد النشاط النفسى الذى يواجهه به الفرد مختلف الحالات التى تصادفه في حياته . وأمره هذا شأنه لا يمكن أن يظل ثابتاً على حال واحدة ؛ فوظيفته نفسها تكسبه المرونة ، وتجعله قابلاً لأن يتغير تغيراً سريعاً أو بطيئاً ، فجائياً أو تدريجياً .

٢ - ترتكز حياة الفرد الإنسانى على ارتباط مظهرى الجسم والنفس أحدهما بالآخر . ولهذا كان الأمور المتعلقة بالتكوين الجسمى الظاهرى والأمور المتعلقة بوظائف الأعضاء أثر كبير فى الظواهر النفسية . ويبدو هذا الأثر واضحاً فى الحالات النفسية التى تنجم عن تكوين جسمى خاص منقول عن طريق الوراثة ، وفى الحالات النفسية التى تنشأ عن قيام الأجهزة بوظائفها ، وبخاصة الغدد ذات الإفراز الداخلى - ولكن مهما

يكن هذا الأثر (أثر الجسم في النفس) عميقاً ، فإن من الخطأ اعتباره من الأمور المطلقة التي لا تتخلف ولا تتحمل استثناء ؛ كما أنه لا يصح مطلقاً ، إذا استثنينا الحالات الباثولوجية (أى الحالات المرضية ، نسبة إلى المرض) ، أن ننظر إليه نظرة تنظرنا إلى الأمور التي لا تستطيع وسائل التربية إلى نقضها أو مقاومتها سبيلاً .

٣ - إن لنوع السلوك الذي يؤخذ به الفرد أو يأخذ به نفسه فيعتاده أثراً كبيراً في كل ما يصدر عنه من حركة وعمل . ولكن مهما يكن لهذا العامل من شأن في استقرار الأعمال الإنسانية ، وتكوين العادات ، وبالجملة في تشكيل هذه الناحية من الحياة التي تمثل أهم قسم من مظاهر النشاط المتكرر كل يوم ، فإنه ليس كل شيء بهذا الصدد . إذ يوجد بجانبه عامل نفسى يتدخل في كل ما تقدم تدخل توجيه وتشكيل وتنظيم ، وهو ما يطمح إليه الفرد من كمال .

٤ - ترشدنا أحدث البحوث في الوراثة إلى أن التنبأ بما سيكون عليه انتقال الطباع من الأصول إلى الفروع لا يمكن أن يكون يقينياً (فيما يتعلق بالفصيلة الإنسانية ، اللهم إلا في بعض ظواهر مرضية « باثولوجية » معروفة) ، وترشدنا كذلك إلى أن امتزاج طبيعتين في البيضة واللقاح تنجم عنه أشكال وراثية مختلفة : فقد يولد من أبوين متوسطين أولاد مزودون بصفات ممتازة . على حين أن أبوين ممتازين لا ينجبان من يشبههما إلا في حالات خاصة .

ومن هذا يتبين أن قصارى ما يُستتظر من العلم بهذا الصدد ، ما دام

بحالته الراهنة ، وهو الإرشاد إلى الوسائل التي يتق بها انتقال بعض الطباع المرضية (الباثولوجية) عن طريق الوراثة .

٥ - لقد ثبت أن لبعض وظائف معينة متصلة بالغدد ذات الإفراز الداخلي أثراً يثنأ في الطباع ، ولا سيما في أدوار الانقلاب الجسمي الخاصة بمراحل النمو الإنساني .

ولذلك ينبغي أن نعي بملاحظة هذه الوظائف وأن ندرسها دراسة طبية عميقة ، علنا نهتدي إلى الوسائل التي نصلح بها ما ينجم عن عملها من شذوذ وفساد .

٦ - لا يدين الفرد بطباعه للوراثة وحدها ، بل يدين بها كذلك لنشاطه الجسمي والعقلي ؛ ونشاطه هذا تشرف التربية على تنظيمه . ففي وسع التربية إذن أن تصبغ الحياة الإنسانية صبغة معينة وتوجهها وجهة خاصة .

٧ - ليس أثر التربية في الطباع مقصوراً على الحالات العادية فلا ينبغي أن نقطع الأمل من نجاح التربية حتى في الحياة الباثولوجية ، (المرضية) وفي أشد الظواهر الوراثية شذوذاً . فالبحوث الحديثة في تربية المجرمين بطبيعتهم ، وانثرات التي يأتي بها كل يوم تربية الشواذ ومن في حكمهم ؛ وتحليل العوامل التي تؤثر في درجة القابلية للتربية والتي كشف عنها علم النفس الحديث ، كل أولئك يبين كيف يتاح للتربية ، حتى في أشد الحالات استعصام على المعالجة أن تعدل العيوب الوراثية سويتها وغير سويتها إلى حد ما على الأقل . وإن النتائج التي وصلنا إليها بفضل الأعمال اليدوية

التي يقوم بها « دون العاديين » ، في مدارسهم ، وبفضل ما يزاوله المجرمون
في إصلاح حياتهم من فنون جميلة ، لترشدنا ، في أوضح صورة ، إلى ما يمكن
عمله وما يجب القيام به في هذه السبيل .

٨ — إن فيما وصلت إليه معارفنا الطبية والنفسية بصدد الوراثة
على الأخص لدليلا على أن ما كان يبدو من تشاؤم وعدم ثقة بالتربية
لم يعد الآن يعتمد على أساس . فمن حيث إنه قد تقرر أن الطباع ،
في معظم مظاهرها ، ليست ثابتة ولا جامدة ، يجب أن يمحى كل أثر لهذه
للتشاؤم وأن نستبدل به تفاؤلا وثقة بالتربية .

واجبنا نحو الوراثة :

وإذا كانت الوراثة هي المنبع الأول الذى منه تنبع الأخلاق فما واجبنا نحوها لاستفيد من خيرها ، وتتنق شرها ؟

على الحكومة — وهى الوكيله عن الأمة — وعلى المربين ، وعلى الأفراد ، عليهم جميعاً واجبات لا بد أن يقوموا بها لحماية النشء من ضرور الوراثة .

فعلى الحكومة أن تتدخل لحماية النشء بكل الوسائل الممكنة بأن تشجع الأصحاء — جسماً وعقلاً وخلقاً — على الزواج ، تشجعهم بكل ما نستطيع من تشجيع لينسلوا الأمة نسلًا قوياً .

ومظاهر هذا التشجيع كثيرة :

منها أن تعطى مكافآت مادية للأسرة التى يزيد عدد أفرادها على قدر معين ، وأن تعفيها من الضرائب ، وأن تفرض ضريبة على كل شخص بلغ سنًا معينة ، وهو قادر على الزواج ولم يتزوج .

وعليها كذلك أن تحظر الزواج أو الإنسال فى كل سن تدل قوانين الوراثة على أن التناسل فيها لا ينتج إلا ذرية ضعيفة .

ومن الوسائل ألا يمكن من الإنتاج من يكون مصاباً بأمراض جسمية ، أو عقلية قابلة للانتقال إلى الفروع عن طريق الوراثة

وقد اختلف الباحثون أمام هذه الوسيلة ، فمنهم من يقول : يمنعون من الزواج أصلاً .

ومنهم من يقول : يباح زواجهم ، ويمنعون من الإنسال بأن يعقموا حتى لا ينتجوا ، وقد أخذت ألمانيا في سنة ١٩٣٣ بهذا الرأي الأخير فعممت غير الصالحين للانتاج السليم لما بهم من عيوب جسمية ، أو عقلية (١) .

فهم إن الأصل عدم تقييد الحرية الشخصية في الحياة التناسلية — إلا بالقيود التي يفرضها الدين — لكن : ماذا نصنع أمام الأمراض المعدية ، والتي تنتقل إلى النسل بطريق الوراثة ؟

إن الزواج مع بعض الأمراض يؤذى المجتمع ، ويؤذى الخلف الناتج منهما ، وهنا يجب أن يتدخل القانون .

يقول « الدكتور أوجست فوريل » — عن الأمراض الزهرية — « كل رجل وامرأة يعلم أنه مصاب بأحد الأمراض الزهرية في حال معدية . ثم يتصل بعد ذلك بشخص آخر يجب أن يُعَدَّ مجرماً يستحق العقاب خصوصاً إذا كان هذا الشخص الآخر سليماً من الإصابة بهذا المرض . وهنا يجب أن يتدخل القانون لتعويض الشخص الذي يصاب بالعدوى . بل يجب أن يعد هذا العمل جريمة ينال مرتكبها نصيبه من العقاب الجنائي ، وعلى المصاب أن يقوم برفع الدعوى — ولو أنه نادراً ما يفعل ذلك خشية الفضيحة — على أننا نأمل أن يحمل المستقبل لنا خيراً كثيراً ،

(١) المصدر السابق .

ونرجو أن يرقى القانون لمصلحة الإنسانية ، وبذلك نكون قد خطونا خطوة هامة نحو مكافحة هذه الأمراض ومنع أذاها عن الأفراد والأسرة والمجتمع (١) .

ولا أدري إذا كان تقدم الطب الآن أصبح يقضى على مثل هذا «الرأى» أولا ؟

يقولون : إن بعض الحقن ظهرت تقضى على مرض الزهري في أيام معدودات ولا أدري إذا كانت تقضى عليه في أدواره جميعها أم تقضى عليه إذا كان لا يزال في دوره الأول .

أما الأمراض النفسية التي لا تؤذى المجتمع من الزواج بقدر ما تؤذى الخلف الناتج منهما فيجب أن يتجه التحريم القانوني إلى الانسال فقط .

والشريعة الإسلامية التي تدعو إلى الإكثار من النسل بقوله صلوات الله عليه : « تناكحوا تناسلوا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة » ،

تعطى الزوج حق طلب فسخ العقد لأمر : منها « الجنون » و « الجذام » و « البرص » ، وتطلب من غير « المستطيع » أن يكف عن الزواج بقوله :

« من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصيام » فهل لنا أن نتوسع في مدلول « الاستطاعة » حتى نجعلها تشمل الأمور « المعنوية »

بجوار « المادية » ؟ . على أنه إن صح ما يروى عن رسول الله صلوات الله عليه : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » و « إياكم وخضراء الدمن » —

خضراء الدمن هي المرأة الحسناء في المنبت السوء — إن صح هذا أغنانا

(١) ج ٢ ص ١٠٤ « المسألة الجنسية » .

في تقييد الحرية الشخصية في الحياة التناسلية .

بناء على كل ذلك فللمجتمع الحق في أن يحد من حرية الأفراد في باب الزواج والعلاقات التناسلية ما داموا يسببون الأذى للناس .

وبهذه المناسبة أطلب بجوار ذلك لتحسين النسل عن طريق الوراثة أطلب تنظيم تعدد الزوجات ، وتنظيم الطلاق ، على معنى أنه لا يقع الطلاق إلا أمام القاضي ، ولا يباح التعدد إلا للضرورة ، فأن مانحن فيه الآن من فوضى الزواج ، والطلاق ، هذه الفوضى ، تأتي لنا بصفات « سافله » تنتقل على توالي الأجيال من الأصل إلى الفرع بطريق الوراثة هذه الوراثة التي تحول العادات على التماذي إلى غرائز .

وعلى الحكومة أيضاً — وهي الوكيله كما قلنا عن الأمة — عليها أن تثقف الشعب ، وتوسع مداركه ، وتثير ذهنه في مسائل الوراثة بكل الوسائل الممكنة حتى يستفيد مما تأتي به من خير ، ويتقى ما تأتي به من شر ، وإلى أن يتمتع الشعب بضمير أفراده عن هذه الشرور يجب أن يتدخل القانون .

على أن الفرد لا يُغتفر له أبداً تقصير في هذه الناحية . بل عليه أن يشعر بأنه مسئول عن خير نسله ، وخير أمته ، وكل ما يتطلب منه الأمر أن ينزل عن شيء من رغباته التافهة في سبيل صلاح مجتمعه .

كم من الناس بيننا الآن من هو في شقاء حسي ، أو معنوي ، وليس من سبب لذلك إلا أن أصله قد اشترى لذته بآلام ذريته .

اذهب إلى مصحة « المصدورين » ، أو إلى « مستشفى الأمراض الزهرية »

أو إلى مستشفى « الأمراض العقلية » ، تر كثيراً منهم يرعى فيه المرضى بسبب آبائهم ، ولو قد كانوا على شيء من « الحذر » و « التقوى » ، ما أوقعوا هؤلاء المصابين في هذا الشقاء الأليم ، ولعل أصل إلى قلب القارىء الكريم فيعمل من جهته على أن يضع لبنة في صرح تحسين النسل عن طريق « الوراثة » بالإرشاد ، والتحذير .

والأفضل في هذا الباب أن تتزوج من غير أقاربك حتى لا تأتى بنسل ضعيف ، ولذلك يقول صلوات الله عليه : « اغتربوا لا نُسُؤوا » أى لا تأتوا بالأولاد ضعفاء . ويقول الشاعر العربي :

تنجبها للنسل وهى غريبة فجاءت به كالبدر خرقة معما
وذلك لأن الزوجين إذا كانا من أسرتين مختلفتين تعادل ما ينتقل عنهما إلى أولادهما بطريق الوراثة . أى تنوع صفاتهما الوراثية ، بحيث تقابل ناحية ضعيفة ناحية قوية فيخف الأمر .

وعلى رجال التربية أن يُوجِّهوا من عهد إلههم أمر تربيتهم فيشجعوا ما يكون منها صالحاً ، ويستأصلوا ما يكون ضعيفاً . وإذا تضافت الحكومة ، والأفراد ، والمربون ، في هذه الناحية على ضوء ما تقدم أمكن أن نأخذ بالوراثة جيلاً جديداً قوياً .